فقد آن الاوان ان تخرج التعريفات من نطاق التجريد الى نطاق التركيز المفهوم، وبخاصة في هذه المرحلة التي تشهد تطورا في النظرة الفلسفية العربية والعالمية الى مفهوم القومية .

وان انسجام الكتابين في المحتوى والنظرة لا يعني انهما جهد مكرر ، انما ينطوي على اسلوبين من الاجتهاد . فاسلوب الحصري يعتمد التبسيط المنطقي ، واسلوب البزاز يتميز بزخم الشباب والاعتداد على صعيد من المناقشة المنطقية التي تتلاشى في نهايتها قوة الكاتب والخصم والقارىء .

مروان الجابري

دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ١

بقلم عبد الرحمن بدوي . دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٥

لا شك ان موضوع هذا الكتاب من اهم الموضوعات الحية المعاصرة ، التي تطرحها مرحلتنا التاريخية الراهنة بشيء كبير من الاصالة . ذلك ان العلاقة القائمة بيننا وبين الغرب في الوقت الحاضر، في مختلف وجوهها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ليست الا نتاجا لقرون طويلة من التفاعلات الحضارية التي تمت بيننا وبين اوربا على مدى الزمن .

فالمثقف العربي المعاصر يشعر ولا ريب بان العلاقة التي تربطه باوربا الآن ، ليست علاقة طارئة، وانما هي علاقة لها جذورها العميقة الغائرة في الوجدان العربي . ولربما كان الوجه الثقافي لعلاقاتنا باوربا هو اكثر الوجوه حساسية ، اذ يؤدي في كثير من الاحيان الى ما يشبه مركب النقص او العقدة النفسية التي يسمونها بعقدة الخواجة ، وهي ليست في واقع الامر الا بمثابة رد الفعل الذي يصدر في عفوية كاملة عن الانسان الذي يعيش في ظل حضارة متخلفة نسبيا ازاء الحضارات المتقدمة .

من هنا نبعت الحاجة لدى المفكرين العرب والمثقفين في بلادنا ، الى ايضاح طبيعة العلاقة التي تكونت على مر الايام بين الوجدان العربي والحضارة الاوربية. اذ ان تحليل شكل هذه العلاقة ومضمونها، من شأنه ان يؤدي الى فهم جديد لدورنا في الماضي والحاضر والمستقبل ، وبالتالي فانه يؤدي الى تلاشي كافة مركبات النقص وافناء العقد النفسية . فنحن اذا تقصينا بدقة وعمق تخوم ذلك المنهج القائل بان الحضارات المختلفة تتفاعل فيما بينها بصورة لا تمنح الفرصة لاي منها ان تتميز عن غيرها ، ما دامت هذه الحضارة او تلك تأخذ كما تعطي ، فان هذا المنهج نفسه لن يعطي لاي انسان يستظل باية حضارة كانت ما يصيبه بالغرور او الاحساس بالنقص.

لهذه الاسباب يأتي كتاب الدكتور بدوي في موعده تماما ، ليزيح الستار عن الدور الباهر الذي قامت به الفلسفة الاسلامية والعلم والادب العربيان في تكوين الفكر الاوربي ابان تلك المرحلة التي يدعوها الاكاديميون بالقرون الوسيطة ويدعوها المخطئون بالعصور المظلمة .

والكتاب مقسم الى استهلال من ثماني نقاط : هي اثر الادب والعلم والتصوف والفلسفة والمعارف العلمية والموسيقى والمعمار في تكوين الفكر الاوربي، ثم المصادر الاسلامية « للكوميديا الالهية » ، فابن خلدون ونظرية العمل والقيمة ، وبعد الاستهلال نقرأ تحت عنوان « العرب والتراث اليوناني » عن العلاقة بين ابن خلدون وارسطو ، و الكندي ومعرفته باليونانية ، وموفق الدين البغدادي ودوره في احياء التراث اليوناني ، واكتشاف العرب لغيوم ماجلان .

والكتاب يبدو لاول وهلة وكأنه دراسة بيبليوغرافية تلتزم التحقيق العلمي الاحصائي بالارقام والنصوص ، ولا يعنيها التحليل الشارح للارقام والنصوص . الا ان القراءة المستأنية للكتاب تؤكد وجهة نظر المؤلف من خلال المنهج الاكاديمي الذي اختاره عمادا لبحثه . ولعل هذا المنهج هو الاضافة الحقيقية التي يثري بها عبد الرحمن بدوي المكتبة العربية في هذا الباب . فقد عالج الكثيرون نفس

الموضوع ، ولكن بكثير جدا من المغالاة العاطفية. فعندما يتحدث الكاتب عن اثر الادب العربي في تكون الشعر الاوربي ، يعتمد على مصادر تاريخ الفكر الاندلسي في اللغة الاسبانية حتى يتعرف على نظام تأليف القوافي في الموشح ، كما يتعرف على نظام توزيع الاوزان وطريقة استخدام اللغة العامية في الزجل. ولم يقتصر تأثير العرب على الشعر الاوربي على الشكل الموسيقي وانما تجاوز هذا النطاق الهام الى ما هو اكثر اهمية : الى المضمون الروحي والعاطفي للشعر، كفكرة الحب النبيل التي تسود الغزل في الشعر البروفنسالي ، وقد عرضها ابن حزم في « طوق الحمامة » والظاهري في « الزهرة » وشعر ابن زيدون . وينتقل المؤلف بعد استعراضه للتأثرات الشعرية الى القصة الاوربية التي يراها قد تأثرت « بكليلة ودمنة » و « الف ليلة وليلة » .

اما دور العرب في تكوين الفكر العلمي الاوربي فيبرز في الرياضيات لان العرب كان لهم الفضل الاكبر في ادخال النظام العشري في العدد بصورته الحالية. وقد دخلت الرياضيات العربية اوربا على يد ليوناردو دي بيزا في القرن الثالث عشر . ومن اشهر الرياضيين العرب الذين عرفتهم اوربا وترجمت مؤلفاتهم الى اللاتينية : الخوارزمي و بنو موسى بن شاكر و الفرغاني ، وفي الكيمياء والطبيعة نجد ابن الهيثم و الرازي و الزهراوي .

فاذا وصلنا الى دور التصوف الاسلامي في نشأة الفكر الاوربي تتبعنا مع المؤلف الدراسات الممتازة التي قام بها المستشرق الاسباني العظيم اسين بلاثيوس وايدتها النصوص الجديدة التي تتكشف باستمرار . ويقتصر الكاتب في هذا الفصل على تأثير ابن عباد الرندي في الصوفي الاسباني يوحنا الصليب ، ثم تأثير الغزالي في دفاع بسكال عن الدين ، ثم تأثير ابن عربي في تصورات صاحب «الكوميديا الالهية» عن الآخرة . اما نقطة الالتقاء بين ابن عباد و يوحنا الصليب فهي فكرة « البسط والقبض » . وكان الجفيد – الصوفي الكبير – يقول: «الخوف يقبضني والرجاء يبسطني » ، ويقول ابن عباد ان البسط والقبض من الحالات التي يتلون بها العارفون، وهما بمنزلة الخوف والرجاء للمريدين المبتدئين ، بسببها الواردات التي ترد على باطن العبد ، وقوتها وضعفها بحسب قوة الواردات وضعفها . على ان القبض والبسط وصفان ناقصان بالنسبة الى ما فوقهما. وابن عباد يفصل انواع المجاهدات التي يجب على السالك ان يمر بها . وهذا التفصيل نجده بعينه عند القديس يوحنا الصليب. كذلك يتفق الاصطلاح الفني عند ابن عباد وعند يوحنا الصليب . ولا سبيل الى تفسير التشابه الدقيق بين مذهب ولغة ابن عباد ومذهب ولغة يوحنا (وابن عباد يسبق يوحنا بمائتي سنة) الا ان هذا الاخير قد تأثر بالصوفي العربي الكبير بواسطة الطريقة الشاذلية التي كانت منتشرة في الاندلس في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

وعن طريق العرب عرفت اوربا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر مؤلفات ارسطو وقطعا من فلسفة افلوطين ومعالم من فلسفة افلاطون . واعمق من هذا اثرا بكثير ، اثر الفلاسفة العرب انفسهم في اوربا حين ترجمت بعض مؤلفاتهم الى اللاتينية وبعض اللغات الاوربية الحديثة الناشئة .

وهكذا نتابع الدكتور بدوي في تفصيله للعلاقة بين تأثير الفكر العربي في الحضارة الاوربية وبين استجابات هذه الحضارة وتطورها . فنضع ايدينا – من ثم – على الدور الذي قمنا به فيما مضى، والدور الذي نستطيع ان نقوم به في الحاضر ، فلا نصاب بالغرور العقيم بما ورثناه من مجد عظيم، ولا نصاب بمركبات النقص ازاء تخلفنا العابر الموقوت .

وهذه هي القيمة الثانية لكتاب عبد الرحمن بدوي ، فهو مصل مزدوج ضد المبالغة في قوتنا وضعفنا على السواء : ذلك انه مصل عقلي يعتمد على المنطق الاحصائي الدقيق . وربما كان الجانب السلبي الوحيد هو ما اشار اليه المؤلف في المقدمة حين وصف كتابه بانه دراسة اجمالية، فنحن ما نزال في امس الحاجة الى الدراسات المطولة – خاصة اذا كانت في هذا المستوى العلمي الرفيع الذي يكتب به امثال الدكتور عبد الرحمن بدوي .

عصام الحلواني